## الفصل الثالث

# مالك بن نبي
# (١٩٠٥-١٩٧٣م)

إن رسم صورة مفصلة لحياة مالك بن نبي قد يكون مهمة صعبة لأنها تعتمد على مصادر محدودة العدد والتوثيق، وأهم مصدر لذلك هو سيرته الذاتية **مذكرات شاهد القرن** بجزأيها، والتي قُدّمت للقارئ في صورة أدبية؛ حيث زعم بن نبي في المقدمة أن شخصاً مجهولاً قد وضع تحت قدميه حزمة من الأوراق، حين كان يسجد للصلاة في أحد مساجد قسنطينة[١]، وأنه عندما اطلع على تلك الأوراق وجدها تحكي قصة شخص ولد في الزمان والمكان اللذين ولد فيهما بن نبي، متخذاً مدخلاً أدبياً استعمل فيه شخصية أخرى أسماها (الصدّيق) قناعاً يمكّنه من «أن يخاطب القارئ من وراء حجاب»[٢].

ومن الواضح أن سيرة الصدّيق هي في حقيقتها سيرة بن نبي نفسه، وذلك لتطابق عدد من المعلومات كزمن المولد ومكانه، وكالدراسة،

---

(١) انظر: مالك بن نبي: **مذكرات شاهد القرن**، المقدمة في الجزأين: الطفل والطالب، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩م، ٥ - ٧.

(٢) المصدر السابق: الجزء الأول، **الطفل**، ترجمة مروان قنواتي، ٧.

obeikandl.com

والزواج الأول، والعلاقة مع حركة الإصلاح الجزائرية وعلمائها وخاصة بن باديس، وغير ذلك كثير، بالإضافة إلى أنه كان يُدعى بين أهله باسم الصدّيق بدلاً من مالك[١].

ولعلنا نستطيع أن نفهم أسباب تستر بن نبي وراء الشخصية القناع؛ فبالإضافة إلى حرصه على استخدام الأسلوب الأدبي الملائم للسرد القصصي، فإن بإمكاننا أن نجد سببين آخرين، على الأقل، لهذا التستر: الأول أن بن نبي ربما كان يتحاشى النظرة السائدة في المجتمع العربي للكتابة عن الذات، بوصفها نوعاً من إبراز النفس، وربما الغرور[٢]، ونتيجة لذلك فإن الشخصيات المتميزة نادراً ما تقدّر في أثناء حياتها، ولا تكتسب إنجازاتها أهمية إلّا بعد وفاتها، كما لاحظ ذلك أحد الأدباء حين أشار إلى: «إننا شعب يحب الموتى ولا نرى فضائل الأحياء حتى يستقروا في سر أعماق الأرض»[٣]. والسبب الثاني أن بن نبي لم يكن حريصاً على لفت الانتباه إلى شخصه، وإنما كان مهموماً بأفكار ورؤى معينة أراد أن يبرزها، فعالم الأفكار عنده أكثر أهمية من عالم الأشخاص؛ ولذلك فقد قدّم للقارئ مذكراته (من وراء حجاب).

---

(١) حديث مع تلميذه وصديقه الليبي الدكتور محمد رفعت الفنيّش.

(٢) ومع هذا فقد نشر بعض الكتاب العرب سيرهم الذاتية ومذكراتهم ويومياتهم قبل بن نبي وبعده. نذكر على سبيل المثال: **مذكراتي في السياسة المصرية** للدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م) وهو في جزأين، و**كلمات للتاريخ**، و**كنت رئيساً لمصر** لمحمد نجيب (ت ١٩٨٥م). كذلك فقد كتب كل من عبد اللطيف البغدادي وأنور السادات سيرتيهما الذاتيتين، ومن بين الأدباء كتب طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) **الأيام** في جزأين، وأحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م) **صفحات من حياتي**، وغير هؤلاء كثير.

(٣) يوسف السباعي: **أرض النفاق**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٩م، ٦.

اعتمد بن نبي في سيرته الذاتية على ذاكرته بدرجة كبيرة، فمن خلالها قام بترتيب الأحداث والأشخاص الذين أثروا في حياته وتقييمهم، وكذلك إعادة اكتشاف الملابسات والظروف التي مرّ بها وفهمها، مستعملاً أساليب أدبية مساعدة مثل الإضاءة الخلفية والخداع وتيار الوعي (Flashback - Allusion - Stream of Consciousness) فمن المعروف أنه قد بدأ حياته أديباً، وكان أول عمل نشره هو رواية بالفرنسية لم تترجم بعنوان (لبيك)[١]، وقد شهد له الكثيرون بتمكنه الفائق من الفرنسية التي كان يتقنها كأبلغ أبنائها، حتى إنه قد استحدث مصطلحاً منحوتاً تبنته الأكاديمية الفرنسية بمعنى مدّعي الفكر والثقافة[٢] (Intellectomomann) ويجد قارئ المذكرات فروقاً واضحة بينها وبين سيرة مواطنه ومعاصره أحمد توفيق المدني مثلاً؛ الذي استعمل في **حياة كفاح** الوثائق والصور والرسائل والإحالات المختلفة[٣]، إذ ساندته الحاسة التاريخية فاعتمد على الوقائع المفصّلة في شهادته على الواقع. ويرجع ذلك إلى كون المدني مؤرخاً وسياسياً وناشطاً ثقافياً وليس مفكراً فيلسوفاً يعنى بالتنظير والتحليل مثل بن نبي، أما **المذكرات** فتغلب عليها العاطفة الشخصية والآراء الخاصة والميول الذاتية، وهو ما لا يعيبها بوصفها سيرة ذاتية. وتعد **المذكرات** بجزأيها أحد الأعمال القليلة التي تصور التغيرات الحاسمة التي شهدتها مختلف مناحي الحياة الجزائرية في النصف الأول من القرن العشرين، ومن خلال هذه **المذكرات** سنحاول رسم صورة عن حياة كاتبنا.

---

(١) نُشرت مترجمة إلى العربية في دار الفكر عام ٢٠٠٩م بعنوان **لبيك حج الفقراء**، بترجمة د. زيدان خوليف (الناشر).

(٢) حديث شخصي مع د. عبد الصبور شاهين الذي ترجم عدداً من كتب بن نبي، بمدينة شيكاغو، أمريكة في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٦م.

(٣) الكتاب من منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر وهو في ثلاثة أجزاء.

## الطفولة

وُلد بن نبي في اليوم الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر، عام **١٩٠٥**م، في مدينة قسنطينة بالجزائر، وكان الابن الوحيد لوالدين معسورين، وأخاً لثلاث شقيقات. لم تكن طفولته تختلف عن طفولة الذين ينتمون إلى جيله وبيئته، عدا كونه قد عاش منذ سن مبكرة مع خال أمه وزوجته العاقرين اللذين تبنياه، ولم يلتحق بن نبي بأسرته الأصلية حتى عندما انتقلت إلى تبسة إلّا بعد أن توفي الخال، وصارت زوجته أرملة معدمة[١]، ولم يبرر بن نبي قصة تبنيه، خاصة أن أسرته لم يكن لها من الأبناء سوى أربعة، ومن الذكور إلّاه. كان والد مالك خريج المدرسة الرسمية التي كانت تدرس باللغتين؛ العربية والفرنسية[٢]، وإليه يعود الفضل في تشجيع ابنه على الدراسة في فرنسا، وتزويده بالمال لعدة سنوات مع ظروفه الصعبة. وكانت علاقة مالك الطفل بجدته لأمه متميّزة، فقد كانت الحاجة زليخة - التي عمرت لأكثر من قرن - بارعة في سرد الحكايات، وفي الاستيلاء على وجدان أحفادها وخيالهم؛ إذ كانت الدهشة والمتعة تتملكهم، وكان مالك يعتبر تحلقهم حولها وتعلقهم بسردها للحكايات حلقة تعليمية[٣]، مؤكداً أن ضميره قد تشكّل خاصة في هذه المدرسة[٤]، وعن طريقها ارتسمت في وجدانه تفاصيل أهوال الاستعمار والهجرة القسرية من الوطن. ولقد هاجر جده لأبيه مع الجماعات التي أفزعها قانون التجنيد الإجباري عام **١٩٠٨**م، واستقر في ليبيا، ولم يصحبه والد مالك وإنما بقي في الجزائر وانتقل مع أهل زوجته إلى تبسة معانياً من البطالة والحاجة؛

(١) بن نبي: **المذكرات**، ج١، ١٦.
(٢) السابق: ٢٥.
(٣) السابق: ١٦.
(٤) السابق: ١١.

مما اضطر الأم إلى أن تعمل خياطة[١]، وعلى ظروف الأسرة المادية، وعدم قدرتها على دفع رسوم الكتاب الزهيدة؛ فقد حرصت على إرسال ابنها إلى الكُتاب حتى اضطرت ذات مرة إلى تقديم سريرها الخشبي للفقيه مقابل تلك الرسوم[٢].

عندما اشتعلت الحرب العالمية الأولى كان مالك قد بلغ التاسعة من عمره، وقد عانت أسرته وأهل بلده من صعوبة الحياة مما دفع أسرته إلى إرساله مرة أخرى إلى مدينة قسنطينة ليعيش مع زوجة خال أمه التي تبنته سابقاً، وليكمل دراسته هناك. ويصف التغيرات العميقة التي أصابت المجتمع آنذاك، وصدمة جده عندما ترك ابنه الثوب الجزائري التقليدي وارتدى اللباس الإفرنجي، وهو ما جعل الجد يخلص إلى «أن النظام الاقتصادي قد بدأ يغيّر النظام الثقافي من كل الوجوه»[٣]. وفي المرحلة الابتدائية يذكر بن نبي أن نجاحه فيها لم يسلم من التمييز العنصري، فمع أنه حصل على أعلى الدرجات طوال السنة الأخيرة من دراسته الابتدائية، فإنه لم يمنح الأولوية التي يستحقها على طلاب فصله، بل منحت لزميله الفرنسي[٤].

## الشباب

التحق بن نبي في عام **١٩٢١**م بمدرسة قسنطينة الثانوية التي تحولت فيما بعد إلى ما سمي **بالمدرسة الفرنسية الإسلامية**، التي أنشئت أصلاً لتزويد الإدارة الفرنسية بطبقة من الموظفين - التكنوقراط - وكانت

(١) السابق: ١٧.
(٢) السابق.
(٣) السابق: ٤٤.
(٤) السابق: ٥٩ - ٦٠.

الدراسة فيها باللغتين الفرنسية والعربية، وقد أشار بن نبي في مذكراته إلى انسجامه الكامل مع مسيو مارتن الذي كان يدرّس الفرنسية وآدابها بطريقة غرست فيه حب القراءة ونمت ذائقته الأدبية والبلاغية[١]؛ ولذلك انكب بن نبي على الأدب فقرأ روايات جوليس فيرن[٢]، وبيير لوتي[٣]، وكلود فارير[٤]، ومن الكتب التي غذت اهتماماته الفكرية كتابا **كيف تفكر** لجون ديوي[٥]، و**التاريخ الاجتماعي للبشرية** لكور تلمونت. كما انخرط بن نبي في تلك المرحلة في حلقات الشيخ مولود بن موهوب، الذي كان يدرّس الفلسفة والعلوم الدينية بالمدرسة الفرنسية الإسلامية قبل توليه الإفتاء، وكان سيدعو إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، وإلى التقدم وتحصيل العلوم الحديثة والأفكار الأوربية[٦].

دأب بن نبي في مطلع شبابه على حضور الحلقات العلمية التي كانت تعقد في الجامع الكبير بقسنطينة، وتلقّى علوم العربية على يد الشيخ

---

(١) السابق: ٧١.

(٢) جوليس فيرن (١٨٢٨ - ١٩٠٥م): مؤلف مغامرات منسوجة على منوال الخيال العلمي. وقد كان لها أثر في انتشار بعض الحقائق العلمية في تلك المرحلة.

(٣) بيير لوتي (١٨٥٠ - ١٩٢٣م): روائي فرنسي كتب بعض روائع أدب الرحلات. كانت معظم رواياته رومانسية تصور مغامرات عاطفية جرت في بيئات شرقية أو استوائية، ومن أشهرها رواية أزياد (AZIYADE) التي جرت أحداثها في القسطنطينية عام ١٨٧٩م. وكان لوتي على علاقة مع السياسي المصري مصطفى كامل الذي شجعه على زيارة الشرق الأوسط والكتابة عنه.

(٤) كلود فارير: روائي فرنسي عُرف بتميّز أسلوبه الأدبي.

(٥) جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢م): فيلسوف اجتماعي وتربوي، أحد روّاد المدرسة النفعية، درّس في عدة جامعات أمريكية، كان آخرها جامعة كولومبيا التي درس فيها من عام ١٩٠٤م إلى عام ١٩٣٠م، حين تقاعد.

(٦) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ١٩٧٧م، ٢/ ١٦٥.

عبد المجيد الذي ترك أثراً في نفسه وفكره بما كان يتميز به من نظرات نقدية للواقع الجزائري؛ إذ كان ينتقد الطرقيين، ويهاجم ممارسات السلطة الاستعمارية في البلاد[١].

وبفضل تلك الدروس أصبح بن نبي قادراً على تذوق الشعر الجاهلي والأموي والعباسي وتقديره، وقد قال: «استطعت بفضل الشروح حول النصوص أن أقدّر وأفهم العبقرية الشعرية الجاهلية، وأولئك الشعراء من بني أمية والعباس، وقد استرعى اهتمامي امرؤ القيس، ولذّ لي سماع الشنفرى، واسترسل لي عنترة في أحلام البطولات، أما الفرزدق والأخطل وأبو نواس فقد مارس كل منهم إغراءه في نفسي»[٢]. وإلى جانب ذلك اتصل بن نبي بالأدب الحديث، فعرف شعر المهجر وقرأ لجبران وأبي ماضي، كما أعجب بشعر حافظ إبراهيم والرصافي، وبأسلوب المنفلوطي وخاصة في كتابيه **النظرات** و**العبرات**[٣].

لكنّ بن نبي كان في الحقيقة أكثر ميلاً إلى القراءة بالفرنسية، فلقد برع أساتذته الفرنسيون وخاصة مسيو بوبريتي في توجيهه نحو القراءة الحرة التي فتحت له آفاقاً جديدة في الأدب والفكر، وقد استفاد في أثناء ذلك من المنهجية الغربية بما فيها من تمحيص علمي وأسلوب تحليلي وتفكير نقدي، وقد تزاوج ذلك مع دروس علماء أجلاء وحلقات علم تعتمد على العقل والمنطق، وعلى تراث علمي يتصل بحضارة أصيلة، فاستمد بن نبي من هذين التيارين توازنه الفكري، وانفتاحه الثقافي، وانتماءه الحضاري، وكل ما غذى توجهه بعدئذ.

قرأ بن نبي لكبار الكتاب الفرنسيين من أمثال لوتي، وفارير،

---

(١) **المذكرات**: ١١٠.
(٢) السابق: ٦٨.
(٣) السابق.

ولامارتين، وشاتوبريان، الذين غرسوا في نفسه حب الشرق. وكانت الفرنسية أيضاً وسيلته لمعرفة قضايا مهمة في الفكر الإسلامي، فلقد كان لكتب فرنسية كثيرة أثرها في تكوينه الفكري، مثل كتاب **الإفلاس الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق** لمؤلفه التركي أحمد رضا[١]، وكتاب **ظل الإسلام الوارف** لكاتبته الفرنسية إيزابيل إيبرهارت[٢] وكذلك **رسالة التوحيد** التي ألفها محمد عبده وترجمها إلى الفرنسية الشيخ مصطفى عبد الرازق بالاشتراك مع أحد المستشرقين[٣].

---

(١) أحمد رضا (١٨٥٩ - ١٩٣٠م): كان من أعضاء **تركيا الفتاة** البارزين. ولد في إسطنبول ودرس فيها ثم في باريس حيث تأثر ببيير لافاييت تلميذ أوجست كونت رائد المذهب الوضعي. وفي باريس أصدر صحيفة ميسفيريت (Mesveret) التي هاجم فيها سياسة السلطان عبد الحميد. وقد حاول السلطان عن طريق بعض القنوات الدبلوماسية محاربة هذه الصحيفة وقمعها. وقد عاد أحمد رضا إلى القسطنطينية بعد إرجاع السلطان للدستور عام ١٨٧٦م، وأصبح رئيس مجلس النواب التركي فيما بعد. وقد ترجم **الإفلاس الأخلاقي** إلى العربية تحت عنوان **الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق** محمد بورقيبة ومحمد الصادق الزمرلي ومحمد العروسي المطوي، ونشرته دار أبي سلامة بتونس. أصدر أحمد رضا كتابين آخرين هما: **أزمة الشرق: أسبابها وعلاجاتها** عام ١٩١٠م، و**التسامح الإسلامي** عام ١٩١١م.

(٢) إيزابيل إيبرهارت (١٨٧٧ - ١٩٠٤م): شخصية نسائية فريدة وغريبة. ولدت في جينيف من أرومة روسية، درست وأتقنت عدة لغات من بينها العربية، وقد اعتنقت الإسلام وتزوجت من جزائري، وعاشت في الصحراء؛ نظراً لعشقها الرومانسي للشرق والحياة الشرقية. لها عدة مقالات بالفرنسية في الصحف الجزائرية، منها صحيفة الأخبار. الكتاب الذي ذكرهُ بن نبي كتبته إيزابيل بالاشتراك مع فيكتور باروكان ونشر في باريس عام ١٩٠٥م.

(٣) مصطفى عبد الرازق (١٨٨٦ - ١٩٤٧م): هو الأخ الأكبر للشيخ علي عبد الرازق. ترجم كتاب **رسالة التوحيد** لمحمد عبده مع برنارد ميتشل عام ١٩٢٥م. وقد أضاف المترجمان للكتاب عنواناً جانبياً هو **استعراض لدين الإسلام** – **Expose de la religion Islam**. كان عبد الرازق تلميذاً بالأزهر، درس =

أصبحت التغيرات الاجتماعية والثقافية التي طرأت على الحياة في كل من تبسة وقسنطينة تتزايد، ولاحظها بن نبي في أثناء تنقله بين المدينتين للدراسة أو لقضاء العطلة المدرسية مع الأهل، فأثار انتباهه ظهور أفكار جديدة بين الناس إثر عودة بعض العلماء إلى البلاد بعد تخرجهم - أمثال الشيخ العربي التبسي - مما أدى إلى تفعيل دور المسجد في حياة المجتمع؛ حيث صار مركزاً جامعاً وبؤرة جاذبة للعديد من الشباب رواد المقاهي[١]، كما لاحظ ازدياد عدد الأوربيين في تبسة؛ مما أشاع النمط الغربي في المظهر والمسلك، وهو ما دفع الشيخ سليمان إلى تنبيه الناس في دروسه بالمسجد إلى العديد من المظاهر السلبية التي بدأت تغزو حياتهم.

وخارج المدرسة والمسجد كان بن نبي يمارس نشاطه الاجتماعي والثقافي في **مقهى بن يمينة** الذي اعتاد أن يلتقي فيه مع أصدقائه للحديث عن مختلف القضايا، وما لبث هذا المقهى أن أصبح مركزاً لحلقة تثقيفية بدأت بمجموعة من الطلاب وبعض مريدي الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ مما أحدث تفاعلاً بين تيارين رئيسين هما: تيار المحافظين وتيار المجددين، أو بين ذوي الثقافتين - العربية والفرنسية - وبين ذوي الثقافة الأصلية؛ حيث كان نقاشهم الذي مس مختلف القضايا «المقدمة التاريخية إن لم تكن الرسمية لما أصبح فيما بعد الحركة الإصلاحية والحركة الوطنية»[٢]، وقد وجد بن نبي نفسه بعد ذلك منتمياً إلى تيار واحد هو تيار الإصلاح[٣]، الذي قاده بن باديس،

---

= على محمد عبده وآخرين ثم سافر إلى باريس وليون لمواصلة الدراسة. أصبح في عام ١٩٣٨م وزيراً للأوقاف، ثم رئيساً للأزهر عام ١٩٤٥م.

(١) بن نبي: **المذكرات**، الجزء الأول، ١٣٤. وربما عنى بذلك عودة الشيخ العربي التبسي إلى مدينته تبسة، ونشاطه بصفته مدرساً، وكاتباً، وعالماً.

(٢) السابق: ١٣٦.

(٣) السابق: ١٤٦.

وجعل من قسنطينة مركزاً للنشاط الثقافي والاجتماعي في العشرينيات من القرن الماضي.

وفي هذه المرحلة، كانت الصحف إحدى وسائل بن نبي للاطلاع على واقع وطنه والعالم، وكانت جريدة **الإقدام** التي أصدرها الأمير خالد الجزائري - الذي أصبح قدوة لشباب عصره - إحدى مصادر الثقافة الوطنية والسياسية التي استقى منها بن نبي، والتي قال عنها: «فالإقدام وضعت في فكري الحدود السياسية العميقة، فكانت تكشف عمليات استغلال الفلاح الجزائري (...) وتفضح رجعية الإدارة المستعمرة وسوء استغلالها للسلطة، فالأرقام التي كانت تنشرها عن مساحة الأراضي الممنوحة للمستعمرين، وعن عدد الأولاد الجزائريين الذين لا يذهبون إلى المدارس تثيرنا وتوجهنا»[١].

كما كان يتابع **الشهاب** الباديسية، و**صدى الصحراء** لمحررها الشيخ الطيب العقبي، و**العصر الجديد** التونسية التي كان يقبل عليها القراء لاهتمامها بقضايا تشمل العالم الإسلامي وأخباره، على عكس **الزهراء** التي كانت مقتصرة على الشؤون التونسية. كما كان يتابع الصحف الفرنسية مثل صحيفة فكتور سبلمان **الصراع الاجتماعي**.

كانت هذه العوامل على اختلافها وتنوعها هي الخيوط التي بدأت تنسج شخصية بن نبي في العقدين الثاني والثالث من عمره، وهو ما جعله واعياً بالتشكلات الجديدة في مجتمعه الجزائري المتحول من التقليدية المستقرة إلى أنماط غير مستقرة أملتها نتائج الحرب العالمية الأولى والاستعمار الفرنسي بكل مساوئه، ولذلك كانت **مذكرات شاهد القرن** سجلاً نابضاً - في المستوى الأدبي والتاريخي - بما تُصورهُ من تغيرات اجتماعية وثقافية واقتصادية، أدت إلى تفكك المجتمع الجزائري وهو

(١) السابق: ٩٣.

ما عانى منه بن نبي شخصياً؛ إذ واجهت أسرته الفقر وفقد جده أمواله وأملاكه، وظهرت مشاكل الهجرة من مدينة إلى أخرى، ومن الجزائر إلى غيرها، كما شهد بن نبي في مطلع شبابه انهيار الطبقة الوسطى التي كانت تؤلف لحمة المجتمع وتجسد قيمه، وظهور طبقة هجينة جديدة[١]، ولاحظ انتشار النظام المصرفي الربوي الذي وصلت فيه قيمة الفائدة المقررة على الجزائريين المسلمين إلى ٦٠٪؛ مما أدى إلى انتقال مساحات واسعة من الأراضي والعقارات إلى أيدي المستعمرين، وقد ردّ بن نبي هذا الانهيار الاقتصادي والاجتماعي الذي أصاب المجتمع إلى الجالية اليهودية ونشاطها الاقتصادي الربوي داخل الجزائر[٢].

كان بن نبي قد بلغ العشرين من عمره عندما أكمل تعليمه الثانوي، ومع ذلك فقد كان تصوره لمستقبله مشوشاً وغير واضح، فسافر إلى فرنسا للبحث عن عمل، وهناك حصل على عمل عضلي، فكانت تجربة مرهقة عاد بعدها إلى وطنه وقد أتعبته المغامرة، وأغضبه استغلال الشركات الفرنسية للعمال الجزائريين[٣].

وفي الجزائر استطاع، بعد عدة محاولات، أن يعمل مساعداً لأعضاء المحكمة التي تنظر في قضايا البدو القاطنين على أطراف مدينة تبسة. وفي عام ١٩٢٧م أصبح عضواً رسمياً في محكمة أفلو - بالأغواط - يقوم بالترجمة بين الأهالي وأعضاء المحكمة. وهناك وجد بن نبي نفسه ينقل أفكار الإصلاح، فحاول إقناع فلاحي أفلو بزرع أكبر مساحة من أراضيهم لتجنب المصادرة الفرنسية الظالمة[٤]، كما كان أول من سرّب مجلة

(١) السابق: ١٩٤.
(٢) السابق: ١٩٧.
(٣) السابق: ٢٧٤.
(٤) السابق: ٣٢٧.

**الشهاب** الباديسية إلى تلك المنطقة، ولكن العمل الرسمي في أفلو، والعمل الحر مع شريك في مطحنة من قبل، لم يكن ليُرضي طموح بن نبي وتطلعاته، ولذلك كان طبيعياً أن يفكر في وسيلة أخرى تقربه من تلك التطلعات، فعزم مرة أخرى على السفر إلى فرنسا.

## الحياة في فرنسا

قبل أن تقيم فرنسا احتفالها بمرور قرن على احتلال الجزائر عام **١٩٣٠**م، قرر بن نبي السفر إلى فرنسا للدراسة. وعلى سوء حال عائلته المادي فقد تعهد والدهُ بتحمل التكاليف. وفي باريس قرر بن نبي الالتحاق بمعهد اللغات الشرقية، ولكن عندما تقدم لامتحان القبول لم تكن النتيجة إيجابية، وقد نصحه مدير المعهد بألّا يحاول التقدم للامتحان مرة أخرى، وقد حيّره هذا الموقف وجعله يدرك «بأن الالتحاق بالمعهد لا يخضع بالنسبة لجزائري مسلم لمقاييس فكرية، بل لمقاييس سياسية»[١]؛ ولذلك التحق بن نبي بمعهد الهندسة الكهربائية فما لبث أن وجد نفسه مفتوناً بالعلوم التي تعد مفتاح الحضارة الغربية؛ ولذلك «لم تكن الساعات في الورشة مجرد لعب، بل كانت مليئة بشعور الوارد على دين جديد يقوم بطقوسه في معبد هذه الحضارة الآلية التقنيّة، ولم تكن أيضاً تخلو من ملاحظات وبواكير تفكير اجتماعي بدأت تخامر عقلي»[٢]. وهكذا أصبح متحفزاً لاكتشاف قوة العلم التقني، وما يمكن أن يفعله في حياته وحياة أمته؛ إذ لم تغب عن ذهنه حالة التخلف التي تعيشها أمته، لدرجة أحس معها بأنه سيكون منقذها المرسل[٣].

---

(١) **المذكرات**: الجزء الثاني، دار الفكر، بيروت، **١٩٧٠**م، ترجمة مالك بن نبي، **٢٧**.
(٢) السابق: **٣٤**.
(٣) السابق: **٣٢**.

ومن العوامل التي أسهمت في نضج بن نبي الفكري والعاطفي في بيئته الجديدة التحاقه **بوحدة الشباب المسيحيين الفرنسيين** الموجودة بباريس، وقد جذبه إليها في البداية الوجبات الرخيصة التي كانت تقدمها لأعضائها، فقرر الانضمام إليها. وقد وجد بن نبي نفسه، وهو يملأ استمارة العضوية، أمام أول اختبار أخلاقي، وذلك حين طلب منه إدراج الدين الذي يعتنقه، فلم يكذب، وقد قبل عضواً في الجمعية المسيحية مع كونه مسلماً، وبعد الاختلاط بأعضاء تلك الوحدة وجد أنه كان يتغذى روحياً[١]، وأن وعيه بالقضايا والمشكلات التي شغلت تفكيره قد أصبح يأخذ منحىً جديداً إذ ساعدته مناقشاته مع زملائه المسيحيين على اكتساب آليات جديدة للتفكير والتحليل، وهو ما أدى إلى إطلاق جوانب كامنة في روحه الإسلامية لم يكن يعرفها من قبل[٢]؛ وخلال ذلك نمت قدرته على التحليل الاجتماعي، وتعمقت تأملاته الفلسفية ورؤاه الفكرية.

وفي الحي اللاتيني، الذي صار يتردد عليه، وجد نفسه منغمساً في مشكلات الجزائر وأبنائها، وفي قضايا العالم الإسلامي التي كانت مطروحة للنقاش بين الشبان المغاربيين الذين كانوا يقطنون الحي أو يترددون عليه. في هذه الأيام وجد بن نبي الفرصة سانحة للدعوة إلى الأفكار الإصلاحية والوهابية، إذ كان الإصلاح والوهابية آنذاك، في المنظور الجزائري على الأقل، وجهين لعملة واحدة؛ إذ اتجه الإصلاح الجزائري - المتمثل في **حركة العلماء** - إلى محاربة بعض الطرق الصوفية المنحرفة، وفضح من تعاون منها مع الإدارة الفرنسية عن طريق الدعوة إلى الاستسلام لواقع الاستعمار الفرنسي من باب التسليم بالقضاء والقدر، كما وجد بن نبي في الحي اللاتيني الفرصة للدعوة إلى الوحدة

(١) السابق: ٣٥.
(٢) السابق: ٣٦.

المغاربية، والعمل الوطني والإصلاحي، وكل الشعارات التي تغطي معنى واحداً؛ هو الإسلام[١].

وقد اتخذ بن نبي موقفاً مضاداً للطرقية المنحرفة عن الشريعة منذ أن كان تلميذاً في حلقة الشيخ عبد المجيد بمسجد تبسة، ويظهر أنه قد مال إلى الوهابية في بداية شبابه، ثمّ تحوّل بعد ذلك إلى الإصلاح عندما رأى في الحركة الإصلاحية الجزائرية نسخة محلية للوهابية[٢]، وليس هناك ما يدل على فهم بن نبي للفكرة الوهابية بكل تفاصيلها، فكان ميله إليها آنذاك عاطفياً حماسياً بسبب عدائها للمرابطين والطرقيين، وقد بلغ حماسه لها درجة ظن معها أن الوهابية ستكون المنقذ للعالم الإسلامي الذي كان آنذاك في حالة انهيار[٣].

على ضوء التفاعل بين هذه التوجهات الإسلامية والمواقف السياسية أصبح بن نبي عضواً فاعلاً ووطنياً متحمساً في **جمعية الطلاب المغاربة** في باريس، مما سبب له - كما جاء في مذكراته - مشكلات في كل من فرنسا والجزائر، فبعد محاضرته التي ألقاها ضمن نشاط الجمعية المذكورة، بعنوان **لماذا نحن مسلمون؟**، استدعته السلطات الأمنية لتوجه له أسئلة تتعلق بمصادره المالية، ثم ما لبث أن نقل والده للعمل في منطقة صحراوية بأعماق الجزائر، ثم فصل في النهاية ليواجه البطالة والعوز[٤]. ومن أجل ذلك اضطر بن نبي إلى السعي لمقابلة لويس ماسينيون[٥] الذي سبق أن تجاهل دعوة وصلته منه؛ لأنه كان يعتبره

---

(١) السابق: ٤٣.

(٢) السابق.

(٣) السابق: ١٥٠.

(٤) السابق: ٥٨ - ٥٩.

(٥) لويس ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢م): مستشرق فرنسي عُيّن عضواً بالمجمع العلمي العربي في القاهرة ودمشق. درّس في عام ١٩١٣م في الجامعة المصرية =

استعمارياً متعصباً ومستشاراً لشؤون العالم الإسلامي لدى الإدارة الاستعمارية[١]، ولكن وبعد إلحاح من والده لمقابلة ماسينيون علّه يتدخل في موضوع فصله التعسفي من عمله، ذهب بن نبي لمقابلته ولكنه أحس بأن ماسينيون تعمد استفزازه في تلك المقابلة عندما سمح لأحد الجزائريين المتفرنسين المعادين للإسلام بالدخول عليهما والتشويش على الهدف الذي حضر من أجله[٢].

كان بن نبي دائم الإحساس بأنه مراقب من قبل الإدارة الفرنسية، ولكنه مع ذلك لم يتوقف عن المشاركة في نشاط **جمعية الطلاب المغاربة** بالحي اللاتيني، كما لم يتوقف عن متابعة الأوضاع السياسية والاجتماعية داخل بلده، وكان مهتماً بصفة خاصة **بجمعية العلماء المسلمين** التي يتزعمها عبد الحميد بن باديس، وبنشاطاتها التعليمية والثقافية المتزايدة، وفي هذه المرحلة وجد بن نبي نفسه منهمكاً في الاطلاع على علوم مهمة؛ مثل: التاريخ، وعلم الاجتماع بدرجة تفوق اطلاعه على العلوم التي كان مكلفاً بدراستها بمعهد الهندسة[٣].

وفي عام **١٩٣١**م تزوج من فتاة فرنسية لم يذكر عنها سوى أنها اعتنقت الإسلام وتسمت بخديجة، مُعَبِّراً عن تقديره لها بصفتها زوجة مدبرة، وربة بيت حاذقة، ومثقفة ذكية ذات ذوق جمالي رفيع، ومُعترفاً بأثرها في نموه الفكري وتشجيعها له على المضي في دراسته العلمية

---

= تاريخ المصطلحات الفلسفية بالعربية، اهتم بالتصوف وكتب كثيراً في موضوعاته واهتم بالخصوص بالحلاج وألف فيه كتاباً كما ترجم شعره إلى الفرنسية.

(١) وقد أكد المستشرق الفرنسي جاك بيرك في كتابه **المغرب بين الحربين** أن ماسينيون كان كثيراً ما يستشار من قبل **لجنة شؤون المسلمين** في باريس، ٧٩.

(٢) **المذكرات**: ٦١.

(٣) السابق: ٥٤.

ونشاطه الفكري، وقد استطاعت خديجة الفرنسية أن تقرب إلى زوجها قيم الحضارة الغربية التي شكّلت شخصيتها وأسلوبها في الحياة، الأمر الذي ساعد بن نبي على استيعاب الثقافة الفرنسية، بل النفاذ إلى أبعاد الحضارة الغربية.

وقد اضطر بن نبي - بعد أن سُجن في فرنسا لأسباب لم ترد تفاصيلها - إلى طلب اللجوء السياسي من مصر التي سافر إليها بمفرده، حيث لم تستطع خديجة أن تصحبه؛ نظراً لإصابتها برومانتيزم الأطراف فبقيت بفرنسا، وهو وضع لم يكن ساراً لكليهما[١]. وقد حافظ على علاقته معها، فكان يراسلها باستمرار ويرسل إليها بالمال بعد أن حصل على اللجوء السياسي واستقر بمصر وحصل على وظيفة[٢]، وقد توفيت خديجة في أوائل السبعينيات، وكان بن نبي قد تزوج من سيدة أخرى وعاد إلى الجزائر بعد استقلالها، وهناك تلقى برقية من فرنسا تنعاها له[٣].

كان بن نبي محدود الأصدقاء وكان حمودة بن الساعي أقربهم إليه وأعظمهم تأثيراً فيه، وقد تميز هذا الصديق الذي كان طالباً بقسم الفلسفة يحضّر لأطروحته عن الغزالي بإشراف لويس ماسينيون، بسعة اطلاعه وثقافته، وكان الاثنان يلتقيان بانتظام لمناقشة الموضوعات الفكرية والفلسفية والسياسية في بيت بن نبي أو في الحي اللاتيني، وقد أفاد بن نبي من تلك العلاقة، حتى إنه كان يسمي بن الساعي بمعلمي.

في هذه المرحلة التقى بالنقابي الشهير مصالي الحاج مؤسس الحزب العمالي المسمى بـ **نجم شمال إفريقيا**، وقد تعاون معه زمناً قصيراً، لكنه

---

(١) عبد الصبور شاهين، مقابلة شخصية معه بالليونيز بأمريكا، ٦ - ٧/ ٩/ ١٩٨٧م.
(٢) السابق.
(٣) رشيد بن عيسى، مقابلة شخصية معه بآن آربر - أمريكا في آب/ أغسطس ١٩٨٢م.

ما لبث أن نفر من شخصية مصالي وسياسته «التي كانت تبحث عن الزعامة على حساب القضية الوطنية»، فهو،كما رآه بن نبي انفعالي وعاطفي تنقصه الموضوعية؛ وهو ما أدى إلى قطع علاقته بالحزب وزعيمه، مسجّلاً بعد عقود في مذكراته أنه «لو لم يتدخل مصالي في الحركة الوطنية لما واجهت الجزائر من المشاكل ما عانته بعد الاستقلال»[١].

أخذت اهتمامات بن نبي تنمو وأفقه يتسع، ولم تعد تشغله قضايا الجزائر وشمال إفريقيا وحدها، بل تعدتها إلى قضايا الوطن العربي والإسلامي، وخاصة عندما اطَّلع على أفكار شكيب أرسلان عبر متابعته لصحيفة **الأمة العربية** التي أصدرها أرسلان من جنيف[٢]، والتي وصلت أفكارها - الداعية إلى الوحدة العربية - وانتشرت بين الطلبة العرب في فرنسا، ومن بينهم بن نبي نفسه الذي تعرف على طالب الحقوق السوري فريد زين الدين[٣] الذي أنشأ جمعية طلابية سميت بجمعية **الوحدة العربية** شارك فيها بن نبي، وتولى فريد زين الدين فيها دوراً قيادياً.

كانت تلك الجمعية تنظيماً سرياً، مثّل فيها زين الدين سورية ولبنان

---

(١) **المذكرات**: ٥٤.

(٢) السابق: ٨٤.

(٣) فريد زين العابدين (١٩٠٧ - ١٩٨٧م): دبلوماسي سوري، تخرّج في الجامعة الأمريكية في بيروت، وواصل دراسته العليا في فيينا وبون وباريس. حصل على الدكتوراه في القانون وتولى عدة مناصب رسمية ودبلوماسية. عمل سفيراً في أمريكة، كما تولى منصب وكيل وزارة الخارجية في حكومة الوحدة بين مصر وسورية في أواخر الخمسينيات له كتاب بعنوان: **حركات التحرر الوطني والتوحد في أوروبا في القرن التاسع عشر**، عام **١٩٣٣**م، كما صدر له في السنة نفسها كتاب عن **نظام الحكم في الانتدابات الدولية** بالفرنسية.

مع آخرين، ومثّل محمد الفاسي[١] وبلفريج[٢] وطالب آخر اسمه الطوريس المغرب، ومثّل تونس طلبة من بينهم بن ميلاد[٣]، في حين مثل بن نبي الجزائر، واصفاً هذه الجمعية بأنها مقدمة لمنظمة الجامعة العربية التي ولدت لاحقاً.

وفي الحي اللاتيني عرف بن نبي عدة شخصيات من النخب العربية من أمثال الحبيب بورقيبة[٤]، .....

(١) محمد الفاسي (١٩٠٨ -؟): كاتب وسياسي مغربي، عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. تخرج في السوربون ثم حصل على دبلوم في الدراسات الشرقية من فرنسا. في المغرب أنشأ صحيفة **المغرب** بالفرنسية، وفي المرحلة التي تعرف فيها عليه بن نبي كان الفاسي عضواً مؤسساً لرابطة طلبة شمال إفريقية المسلمين وناشطاً فيها، وقد أصبح من معاوني شكيب فى تلك المرحلة. بعد ذلك أصبح الفاسي أحد مؤسسي حزب الاستقلال المغربي. وقد كتب عدداً من الكتابات الأدبية والتاريخية.

(٢) لعل بن نبي يقصد أحمد بالفريج (١٩٠٨ -؟): أحد السياسيين المغاربة درس في الجامعات الفرنسية والمصرية، وقد كان مع زميله الفاسي، من المتعاونين مع شكيب أرسلان. مارس النضال ضد الاستعمار الفرنسي لبلاده وتعرض للنفي، ثم عاد إلى وطنه عام ١٩٥٥م سكرتيراً لحزب الاستقلال. عُيّن عام ١٩٥٦م وزيراً للخارجية، وبعدها رئيساً للوزراء ثم ممثلاً شخصياً للملك الحسن الثاني.

(٣) أحمد بن ميلاد: طبيب تونسي تلقى تعليمه في فرنسا، انخرط في محاربة الحماية الفرنسية لبلاده وكتب منشوراً سياسياً بعنوان خمسة عشر عاماً من التفكر في تونس، باريس، ١٩٣٣م.

(٤) الحبيب بورقيبة (١٩٠٣ - ٢٠٠٠م): رئيس الجمهورية التونسية منذ استقلالها عن فرنسا عام ١٩٥٦م حتى تنحيته في ١٩٨٧م. درس في المدرسة الصادقية المرحلة الأولية، ثم في كلية الصادقية وفي المدرسة الفرنسية. سافر عام ١٩٢٤م إلى فرنسا لدراسة القانون والعلوم السياسية. كان عضواً في حزب الدستور الذي قاده عبد العزيز الثعالبي عام ١٩٢٢م. كوّن علاقة مع أحزاب اليسار الفرنسي في أثناء وجوده في باريس، وفي تونس أسهم في الصحافة التونسية ذات اللسان الفرنسي قبل أن ينشئ جريدته الخاصة **العمل التونسي** – **L'action Tunisienne**. وفي ١٩٣٤ =

والهادي نويرة[١]، والمناضل صالح بن يوسف[٢]، كما عرف الشيخ المصري عبد الرحمن تاج الذي أصبح فيما بعد رئيساً للأزهر[٣].

وفي الثلاثينيات، حينما كان بن نبي يتردد على وطنه الجزائر لزيارة أسرته، كوّن علاقات طيبة مع عدد من العلماء والمثقفين الجزائريين داخل البلاد، مثل الشيخ العقبي الذي اعتبره في مرحلة ما أكثر أهلية لقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من بن باديس[٤]، ومثل

---

= أصبحت حلقته المكوّنة من الشباب الجامعي عصب حزب الدستور الجديد. حول حياته ونضاله انظر الفصلين الثاني والثالث من كتاب كلمنت هنري مور: **تونس منذ الاستقلال: ديناميكية حكم الحزب الواحد**. مطبوعات جامعة كليفورينا، بيركلي ١٩٦٥م.

(١) الهادي نويرة (١٩١١-١٩٩٣م): سياسي تونسي، كان عضواً فاعلاً في حزب الدستور الجديد، وتقلّد رئاسة الوزراء في عهد بورقيبة عام ١٩٧٠م، وكان ساعدهُ الأيمن حتى تقلده منصب أمين عام الحزب في ١٩٧٤م.

(٢) صالح بن يوسف (١٩١٠ - ١٩٦١م): سياسي تونسي درس في فرنسا وأصبح المساعد الأول للحبيب بورقيبة في منتصف الثلاثينيات، ثم أمين حزب الدستور حتى عام ١٩٥٥م، وعندما وقّع بورقيبة مع الفرنسيين المعاهدة التي تمنح التونسيين حكماً محلياً وليس استقلالاً، صرّح بن يوسف بمعارضته وخطب الجمعة في الناس شاجباً تلك المعاهدة وداعياً إلى الحرب لا إلى التنازل، ولذلك طرد من الحزب. هرب إلى ليبيا ثم إلى القاهرة بعد أن شعر بالخطر يتهدده، وهناك تعرّف أكثر على الاتجاه القومي وعمل مع حركة تحرير المغرب التي قادها عبد الكريم الخطابي، ومع جبهة التحرير الجزائرية. وقد اغتيل في آب/ أغسطس ١٩٦١م في مدينة فرانكفورت.

(٣) انظر: إبراهيم البعثي: **شخصيات إسلامية معاصرة، ٢/ ٢٢٢.**

(٤) بن نبي: **المذكرات، الطالب، ٢٣٠**. وقد اعترف بن نبي بعد ذلك بأن آراءه كانت مبنية على موقف ثقافي وأخلاقي يفضل الفقير على الغني، وساكن الريف على ساكن المدينة. وقد ذكر علي بن أوجيت في المقابلة التي أجراها معه لهذا البحث الأستاذ العربي معيريش في نيسان/ أبريل ١٩٨٧م، أن حمودة بن الساعي كان وراء تغيير نظرة بن نبي تلك.

عباس فرحات الذي كان يمثل آنذاك اتجاه التفرنس والاندماج، وقد أشار بن نبي في مذكراته إلى أنه لم تكن هناك رؤية مشتركة تجمعه مع فرحات، خاصة بعد أن نشر الأخير مقاله بالفرنسية **أنا فرنسا** الذي مَجّد فيه الدولة المستعمرة وأنكر أن تكون للجزائر شخصية مستقلة عنها، وقد قام بن نبي بكتابة ردٍّ شديد اللهجة على أفكار فرحات وصفته زوجته المتابعة لنشاطه «إلهاماً من السماء»، ولكن ذلك الرد الذي أرسل إلى جريدة **الدفاع** لصاحبها الأمين العمودي لم ينشر، وقد دُهش بن نبي عندما علم من العمودي نفسه بأنه قد استلم الرد، ولكن قراراً قد اتخذ بعدم نشره، حماية لمستقبل فرحات عباس السياسي[١].

لقد أعجب بن نبي مبكراً بمبادئ **جمعية العلماء المسلمين** وأفكار الإصلاح، واعتبر نشاطه الفكري امتداداً لها، لكنه مع ذلك كان عاطفياً في نظرته لعبد الحميد بن باديس، رئيس الجمعية؛ فبعد أن كان معجباً بشخصه وفكره نجده ينفر منه بعد أن ذهب بن باديس عام **١٩٣٦**م إلى فرنسا عضواً في وفد **المؤتمر الجزائري الإسلامي** لتقديم مطالب الشعب إلى حكومة فرنسا، فلقد هزت هذه المبادرة صورة العلماء عند بن نبي؛ فذهب شخصياً إلى الفندق الذي نزل به الوفد، وواجه كلاً من بن باديس والإبراهيمي والعقبي سائلاً إياهم عن جدوى نزولهم في ذلك الفندق الفخم، وعن هدفهم من التفاوض مع المستعمرين، متهماً إياهم بأنهم يعانون شعوراً بالنقص أمام العلمانيين[٢]، وهو ما جعلهم يقررون المجيء معهم إلى فرنسا، وقد اعترف بن نبي بأنه قد مال في الماضي إلى الإصلاحيين لأنهم كونوا تياراً سما بنفسه «عن أوحال السياسة وحملات

(١) السابق: **٢٢٣**.

(٢) بن نبي: **شروط النهضة**، دار الفكر، دمشق، **١٩٧٩**م، **٢٩**.

الانتخاب»[١] لكنه انتهى إلى أن العلماء كان ينقصهم التفكير المنهجي، وأنهم لذلك لم يركزوا على الأهداف الأصلية لحركتهم[٢]، وهكذا نجد أن مثاليته هذه واستقلاليته الفكرية لم تسمحا له بأن ينضم رسمياً إلى جمعية العلماء أو أي منظمة سياسية أخرى.

تفرغ بن نبي في هذه المرحلة للقراءة والثقافة، وكان قد أغرم بالفرنسية حتى إنه كتب بها الشعر[٣]، كما تمكن بواسطتها من متابعة الاكتشافات المختلفة التي ظهرت في ذلك العصر مثل: التجارب الأولية للبث التلفازي، ومحاولات العالم الفرنسي جورج كلود استغلال حرارة ماء البحر لإنتاج الطاقة؛ وهو ما دفعه إلى التساؤل: إذا استطاع هؤلاء استخدام حرارة البحار فلماذا لا نستخدم نحن حرارة الصحراء[٤]؟ وهو ما يدل على أن قضية تخلف الأمة كانت دائماً محور تفكيره.

كان بن نبي مثقفاً ملتزماً يؤمن بأن له دوراً ومسؤولية؛ فلقد تمنى أن يتولى مع صديقه حمودة بن الساعي شؤون **جمعية العلماء المسلمين** ظناً منه بأن لهما القدرة على خوض المعركة السياسية مع الاحتفاظ بالوجهة الأصلية لحركة الإصلاح[٥]. كما أدى عدم شعوره بالراحة من الإقامة بفرنسا، وحماسه المتزايد للمبادئ التي نادت بها الحركة الوهابية، إلى التفكير في الهجرة إلى مدينة الطائف قرب مكة. ولم يكن هذا الحلم رومانسياً خالصاً أو هروبياً، بل كان معبراً عن طموح عملي هو القيام بمشروع تحويل بقايا أضاحي الحجاج إلى سماد طبيعي يستفاد منه في

(١) السابق: ٣٠.
(٢) السابق.
(٣) السابق: ١٠٨.
(٤) السابق: ١٤١.
(٥) السابق: ١١٦.

الزراعة[١]، ومن أجل ذلك التحق بفصول ليلية لدراسة علم الكيمياء التطبيقية، كما أعطى المزيد من وقته لمواد علمية أخرى لها علاقة بالمشروع. فلقد ألَحَّ عليه هذا الحلم مدة من الزمن تقدم خلالها بطلب تأشيرة لزيارة السعودية عن طريق مصر، إذ كان لا بد للباخرة من المرور بقناة السويس، لكن الدبلوماسي المصري في باريس رفض مروره بالسويس مقترحاً عليه البحث عن طريق مباشر يوصله إلى السعودية. ولم ييئس بن نبي من الوصول إلى غرضه، فحاول السفر إلى أفغانستان ثم إلى ألبانيا، وحين لم ينجح اضطر إلى البقاء في فرنسا لإنهاء عامه الدراسي الأخير.

استولى على بن نبي في هذه المرحلة قلق من نوع خاص، فلقد أصبحت بلاد المستعمر شبه معتقل يتمنى الهرب منه، كما صار الوطن مسرحاً للسياسات المتناقضة التي دفعته إلى تصعيد نقده للنشاطات السياسية التي كانت تصيبهُ بالخيبة، وربما تدفعه إلى أن يكون أحياناً متناقضاً مع نفسه. فعند انعقاد **المؤتمر الجزائري الإسلامي** مثلاً رأى بن نبي أن ذلك «نصر حققه الشعب الجزائري على نفسه وعلى المستعمر»[٢]. ولكنه عاد فأنكر أن تُمثل **جمعية العلماء** في الوفد الذي اختاره المؤتمر ليسافر إلى فرنسا لتقديم مطالب الشعب الجزائري إلى الحكومة. وهو ما يؤكد أن نظرته إلى العلماء وإلى مشروعهم الإصلاحي كانت نظرة مثالية رومانسية لدرجة لم يستطع معها تفهم خطتهم وأهدافهم من الاشتراك في كل من المؤتمر والوفد، ولذلك فقد أصيب بالخيبة والإحباط حتى إنه فقد كل اهتمام بالدراسة والكتابة والمؤتمر، بل حتى بالإصلاح الإسلامي في عمومه[٣].

---

(١) السابق: ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) السابق: ١٣٩.

(٣) السابق: ٢٢٨.

في عام **١٩٣٨**م انخرط بن نبي في تدريس العمال الجزائريين الأميين في مرسيلية، وقد شعر بجدوى عمله حين حاول أن يغيّر من أوضاعهم النفسية والعملية عن طريق التعليم والتوعية، ولكنّه أوقف بعد مدة وجيزة بدعوى أنه ليس مؤهلاً للقيام بمثل هذا العمل[١]، ومثل هذا الإجراء جعل من بن نبي شخصاً دائم الشعور باضطهاد الفرنسيين له، وبأنهم كانوا يخشون نشاطاته ويحاربونها.

وبعد العودة إلى الجزائر في العام نفسه وإقامته في تبسة محاولاً الانشغال ببعض النشاطات التي كانت تنتهي به إلى الإحباط، أصبح بن نبي فاقداً «كل أمل إلّا أن تشتعل حرب عالمية تغيّر كل شي»[٢]. وبعد نحو العامين من الإقامة في الجزائر لم يتمكن بن نبي من تحقيق أي من الأهداف التي سعى إليها فقرر مغادرة البلاد. وفي الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر **١٩٣٩**م صعد إلى الباخرة، في طريقه إلى فرنسا، وما إن بدأت شواطئ الجزائر تختفي عن ناظريه وراء الأفق الممتد، حتى خاطب وطنه قائلاً: «**أيتها الأرض الجاحدة.. تطعمين الغريب، وتتركين أبناءك للجوع. لن أعود إليك إذا لم تصبحي حرة**»[٢].

بهذه العبارة ينتهي الجزء الثاني من **مذكرات شاهد القرن**، في حين تبتدئ مراحل أخرى من حياة كاتبنا هي أنضج وأغزر إنتاجاً. ومهما عُلم عن نشاطاته فإنها ليست موثقة إلّا ما نشر منها في صور إصدارات مطبوعة. وقد سجّل بن نبي قبل وفاته وصيته في بيروت، أعطى فيها لأحد تلاميذه المقربين، هو الأستاذ عمر مسقاوي، حق رعاية حقوقه الفكرية المتعلقة بكتبه. كما كتب وصية أخرى لها طابع شخصي طلب عدم فتحها وتنفيذها إلا بعد أن تبلغ صغرى بناته الواحدة

(١) السابق: ٢٣٤.
(٢) السابق: ٣١٤.

والعشرين[١]، وقد فتحت بعد الموعد الموصى به بمدة؛ وتبيّن أن بن نبي قد ترك الجزء الثالث من مذكراته مخطوطاً لوريثاته موصياً بأن يطبع بعد أن تبلغ بناته الثلاث مرحلة من العمر تمكنهن من القيام بهذه المسؤولية[٢].

## إنتاجه الفكري في فرنسا

بدأ بن نبي التأليف بعد الحرب العالمية الثانية، حين نشر بالفرنسية **الظاهرة القرآنية** عام ١٩٤٦م، وبعدها بعام واحد نشر روايته الوحيدة **لبيك**. كما نشر **شروط النهضة** عام ١٩٤٨م، و**وجهة العالم الإسلامي** عام ١٩٥٤م؛ أي عام اندلاع حرب التحرير الجزائرية. وفي هذا الكتاب حاول بن نبي أن يضع بعض الأسس النظرية لإحياء حركة الإصلاح[٣]. ولكنّ رد فعل المثقفين داخل الجزائر كان سلبياً ومحبطاً،

(١) محادثة هاتفية مع الابنة الكبرى إيمان بن نبي في ١٤ آب/أغسطس ١٩٨٥م. وقد أعلمتني أن أختها رحمة ستبلغ الواحدة والعشرين في آب/أغسطس من العام القادم: ١٩٨٦م. وفي العام التالي حادثتها مرة أخرى، فأعلمتني بأن الوصية لم تفتح لأن العائلة لم تستطع أن تتجمع في الجزائر لتفتح الوصية وتطّلع عليها، وقد رجّحت أن تذهب العائلة لهذا الغرض في صيف عام ١٩٨٨م. ولم يعلن أي شيء عن هذه الوصية حتى بعد إجازة هذه الأطروحة. وحين كانت النسخة الإنجليزية تحت الطبع في كوالا لمبور - ماليزيا أرسلت لرحمة عن طريق الفاكس عدداً من الأسئلة المحددة فأجابت باقتضاب وقد ضمنت إجاباتها في الكتاب ونصصت عليها في الهوامش. رحمة متزوجة من شاب سوري وتعيش في كاليفورنيا. وقد أنشأت هناك (دار الحضارة) لرعاية مؤلفات والدها وأفكاره، ولكن إنتاج تلك الدار وأثرها غير ملموس، وقد حلّت مؤخراً.

(٢) د. عمار طالبي: رسالة مخطوطة حررت في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٤م.

(٣) العربي معيريش: **مالك بن نبي والاتحاد الوطني**، بحث غير منشور من متطلبات درجة الماجستير، قدّم لجامعة الجزائر عام ١٩٨٢م، ٣٦.

ليس بسبب ما جاء في الكتاب، وإنما لحملات بن نبي ضد الطرقية، وموقفه من العلماء، والوطنيين ذوي التوجهات المتعددة ممن دخلوا في مباحثات مع الفرنسيين. ولذلك فقد اتهم بن نبي عند مراجعة كتابه **شروط النهضة** على صفحات جريدة العلماء الجزائريين، بأنه قد نقل من جريدة فرنسية عُرفت بأنها لسان فرنسا الاستعمارية، ووُصف الكتاب بأنه «يضر بقضية الشعب»[١]. كما نشرت صحيفة أخرى تابعة لأحد الأحزاب الوطنية مقالة من حلقتين بعنوان **خطوة خاطئة نحو الجنون** تعرضت فيها للكتاب نفسه، أما صحيفة الحزب الشيوعي الجزائري فقد رأت أن ما جاء في **شروط النهضة** «يستحق رضاء المستعمر»[٢]، وقد آلمت تلك المواقف بن نبي، لكنّها أيضاً ضاعفت من إصراره على معالجة القضايا الجوهرية التي تناولتها كتاباته. وقد ألقى في العام نفسه محاضرة باللغة العربية في معهد بن باديس بقسنطينة، شرح فيها أفكار **شروط النهضة** الذي صدر بالفرنسية إلى (النخبة المستعربة)، ثمّ حاضر بعد ذلك بالفرنسية حول الأفكار نفسها (للنخبة المتفرنسة)، وفي هاتين المحاضرتين عرض بن نبي نظريته في الحضارة، موضحاً الشروط التي يراها لازمة لانطلاق أي مجتمع نحو مشروعه الحضاري[٣].

عاش بن نبي في فرنسا مع زوجته من عام **١٩٣١**م إلى عام **١٩٥٦**م، وهي المدة التي أصدر فيها مؤلفاته الأربعة الأولى. وكانت السنوات التي سبقت اندلاع الثورة الجزائرية حاسمة في تاريخ أوروبا عامة، وفرنسا خاصة. ومع أن المعلومات المتوفرة عن حياة بن نبي في هذه المرحلة

(١) مالك بن نبي: **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩م، ٣٨.

(٢) السابق.

(٣) مقابلة مع علي أوجيت.

لا تساعد على تتبع تفاصيل تطوره الفكري، ومواقفه من التيارات السياسة الفرنسية، ومن الأفكار التي سادت أوروبا آنذاك، ومع ذلك فمن المتوقع أن يكون قد تأثر بالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي نتجت عن هزيمة فرنسا السياسية والعسكرية في الحرب العالمية الثانية، ولا بد أنه قد عانى وزوجته مادياً، ولذلك انتقل عام **١٩٥١م** للعيش مع والدة زوجته في قرية صغيرة تبعد عن باريس بمئة وعشرين كيلو متراً تدعى دوروكس. وتبقى معلومات أخرى مهمة عن حياة بن نبي في هذه المرحلة غير متوفرة، مثل: التي تتعلق بأصدقائه غير حمودة بن الساعي ونشاطاته الفكرية، ووضعه المادي وملابسات دخوله السجن في الخمسينيات، قبل رحيله إلى مصر. وقد رد البعض أسباب سجنه إلى كيد أحد الوزراء الجمهوريين الذي كان يكره بن نبي شخصياً[١]، وردها غيرهم إلى أسباب أخرى[٢]. ومع أن آراءه السياسية كانت ضد كل من النازية والفاشية، فإنه حتماً لم يكن متعاطفاً مع فرنسا الاستعمارية في أزمتها السياسية الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية، باعتبارها تحتل بلده.

## مصر: الهجرة والنشاط

بعد عامين من اندلاع الثورة الجزائرية نجح بن نبي في الهجرة إلى مصر التي لم يذكر سبب اختياره لها. ولا بد أن ذلك الاختيار قد استند إلى كون مصر مركز الثراء الفكري والاجتماعي والحضاري في الوطن العربي. وهي أول بلد عربي شجب الاستعمار الفرنسي للجزائر قبل ثورتها، ووقف مع تحررها منذ مراحله الأولى، ولذلك كانت مصر ملجأ

(١) ذكر لي حادثة السجن هذه د. عبد الصبور شاهين في المقابلة المذكورة سابقاً.

(٢) انظر: كتاب عبد الله بن حمد العويس: **مالك بن نبي حياته وفكره**، الرياض، ١٩٩٤م، ٦١٧ وما بعدها.

للكثير من الوطنيين الجزائريين، ومقراً للحكومة الجزائرية المؤقتة التي شكلها في المنفى قادة جبهة التحرير الجزائرية. وقد أشار بن نبي في رسالته المعنونة **(إلى قادة الثورة)** إلى أنه قد حضر إلى مصر ليكون قريباً بقدر الإمكان من وطنه[١] مقدّماً لهم مقترحات عملية ظن أنها تمكنه من خدمة الثورة، مثل أن يعمل «ممرضاً عسكرياً في جبهة الحرب ليكتب تاريخ الثورة من الداخل»، وليكتب من هناك إلى رئيس الوزراء الفرنسي شارحاً له «الأسباب التي تضع كاتباً جزائرياً في المعركة»[٢]، ولكن بن نبي لم يتلق أي رد، ربما لأنه كان - على مستوى الممارسة السياسية - معارضاً لإنشاء أحزاب سياسية في الجزائر، منتقداً لنشاطاتها في كل مرة تحدث أو كتب فيها عن الموضوع، بل إنه كان يرى أن تلك الأحزاب «كانت مسؤولة عن تأخر الثورة إلى ما بعد الحرب العالمية»[٣]. ولعل ذلك أحدث توجساً وسوء فهم بينه وبين قادة الثورة الذين ربما راودهم الشك في طلب بن نبي المقدم في رسالته، فهو لم يكن عضواً في أي من الأحزاب السياسية، ولا حتى في **جمعية العلماء الجزائريين**. بل لقد كانت لبن نبي نظرة سلبية إلى بعض قادة الثورة، إذ كان يرى في فرحات عباس إنساناً خائناً[٤]، وأن بن بولعيد هو بطل الثورة الحقيقي الذي قتله الفرنسيون بسبب نشاطاته الثورية[٥]. ولا غرابة في أنه في الوقت الذي كان بن نبي يصف فيه قادة الثورة بأنهم خونة وجواسيس، كانوا هم يعدونه هوائياً وغريب الأطوار[٦]. ولذلك لم يردوا على رسالته، مما زاد من

(١) مالك بن نبي: **في مهب المعركة**، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٩٧٢م، ٨٠ - ٨١.
(٢) السابق.
(٣) بن نبي: **المذكرات**، ج١، ٨٦.
(٤) عبد الصبور شاهين، المقابلة.
(٥) السابق.
(٦) رشيد بن عيسى، المقابلة.

درجة تشككه فيهم، فكتب رسالة صغيرة بالفرنسية بعنوان **النجدة للجزائر**، محاولاً أن يلفت الانتباه فيها إلى ما اعتبره عيوب الثورة الجزائرية، وهو ما يبين مدى الإحباط الذي كان بن نبي يعانيه آنذاك، ولكن ذلك الإحباط سرعان ما تلاشى عندما حصل على حق اللجوء السياسي في مصر، ولمس تقدير المسؤولين المصريين له على إنتاجه الفكري، فعيّن مستشاراً في **المؤتمر الإسلامي** الذي سمي فيما بعد **مجمع البحوث الإسلامية** الذي شغل أنور السادات منصب أمينه العام. وتبع ذلك أن نشرت وزارة الإعلام المصرية **فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج** في أصله الفرنسي عام **١٩٥٦**م، ثم صدور الترجمة العربية بتقديم أنور السادات[١]، وقد قدم هذا الكتاب بن نبي بوصفه مفكراً وصاحب رؤية فريدة للنخبة المصرية وللقراء العرب بعد ذلك. وقد ترجمه عبد الصبور شاهين- الذي ترجم فيما بعد كتباً أخرى - معتبراً أفكار بن نبي تعويضاً عن الفكر الإسلامي، الذي حد منه نظام عبد الناصر بعد صدامه مع الإخوان المسلمين، ومنع كتبهم ومنشوراتهم. ومن خلال ترجمة **شروط النهضة** و**الظاهرة القرآنية** و**وجهة العالم الإسلامي** أسهم شاهين في نشر أفكار بن نبي الإسلامية في جوهرها، والجديدة في نمطها، مستغلاً كون المترجم عنه تحت حماية النظام[٢].

في القاهرة، وبينما كانت الترجمة العربية لكتاب **شروط النهضة** تحت الطبع، صدر كتاب بعنوان **العروة الوثقى** يجمع مقالات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده[٣]. وقد أشار الناشر في مقدمته إلى كتاب آخر

---

(١) نُشر الكتاب في سلسلة اخترنا لك كما ذكر د. شاهين.

(٢) د. شاهين، المقابلة.

(٣) عنوان الكتاب: **العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى**، منشورات دار العرب، القاهرة، **١٩٥٨**م.

بعنوان **مستقبل الإسلام**[١] ذكر أنه لـ «كاتب فرنسي عاش في شمال إفريقيا، حيث اختلط، وأحب واعتنق الإسلام، وعانى في سبيل الدفاع عنه»[٢]، وليست هذه الإشارة سوى معلومات خاطئة عن بن نبي نفسه، إذ كان ذلك الكتاب ترجمة لـ **وجهة العالم الإسلامي**، نشر دون إذن المؤلف وأسقط المترجم تعريفاً بالكاتب كان مدرجاً في الأصل الفرنسي. وقد اعتبر بن نبي تلك الإشارة خطأ مقصوداً استهدف تشويه صورته داخل مصر وخارجها. وكعادته، اعتقد بأن (الاستعمار) كان وراء ذلك، وهو ما جعله يرى أن «الأفكار التي جاء إلى الشرق من أجل نشرها قد وقعت في شبكة الرقابة الاستعمارية، وأن حركة هذه الأفكار قد أصبحت موضوعاً للمراقبة»[٣].

وبالرغم من ذلك الشعور، فإن بن نبي لم يتوقف عن نشاطاته، وطرح رؤاه الاجتماعية والفلسفية التي سببت في بعض الأحيان شيئاً من الاختلاف والخلاف بينه وبين غيره من الكتاب. ولعل أشهر هذه الخلافات تلك التي حدثت بينه وبين سيد قطب[٤] الذي أعلن عن قرب

(١) هذه أول ترجمة عربية لكتاب بن نبي **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة شعبان بركات.

(٢) بن نبي: **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، ٥٢. وانظر أيضاً كتاب: **العروة الوثقى**، مرجع سابق، ٣.

(٣) الصراع الفكري.

(٤) سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦م): مفكر إسلامي من جماعة الإخوان المسلمين مارس الكتابة والنقد الأدبي والشعر. سجن في محنة الإخوان الأولى ١٩٥٤م لمدة عشر سنوات، وفي السجن كتب عدداً من مؤلفاته التي كانت تنشر خارج مصر وبالتحديد في بيروت، لعل أشهر تلك المؤلفات **في ظلال القرآن**. أطلق سراحه عام ١٩٦٤م بعد أن توسط الرئيس العراقي عبد السلام عارف لدى عبد الناصر. نشر قطب كتابه **معالم في الطريق** عام ١٩٦٥م، وبعدها قبض عليه وحوكم على أفكاره المدرجة في الكتاب فحكم عليه بالإعدام ونفذ في ٢٩ =

صدور كتاب له بعنوان **نحو مجتمع إسلامي متحضر**، وقد أعجب بن نبي بالعنوان الذي جعله يتطلع إلى أن تتلاقى أفكار الكتاب مع أفكاره التي ينادي بها ويؤسس لمنهجيتها. ولكنّ سيّد قطب قرر لاحقاً حذف صفة (متحضر) وأصدر الكتاب بعنوان **نحو مجتمع إسلامي**، وهو ما لم يرق لبن نبي، الذي لم يرحب بذلك الحذف بل رآه «تشويهاً للقضية الحقيقية»[١]، معتبراً أن العنوان الجديد يحمل ادعاءً بأن المسلمين متحضّرون، وهو «مديح لا فائدة منه نتج عنه وضع من الولاء الأعمى»[٢]. كما انتقد - على المستوى الفكري والنفسي - الاعتقاد بوجود تناقض بين أن يكون الإنسان مؤمناً حقيقياً، وأن ينتقد وضع المسلمين الراهن.

وقد ردّ سيد قطب في كتابه **معالم في الطريق** على آراء مالك بن نبي تلك، مشيراً إليه بوصفه (كاتباً بالفرنسية)، مدافعاً عن قراره حذف كلمة (متحضر) من عنوان كتابه مسوّغاً ذلك بأنه إنما كان يهدف إلى تجنب التكرار، مشيراً إلى أن إدخال كلمة (متحضر) في عنوان الكتاب، في البداية، كان نتيجة لوجود مقاييس غربية للحضارة شوشت تفكيره وأثرت بطريقة غريبة في الضمير الإسلامي. وقد خلص إلى أن صفة (إسلامي) المنسوبة إلى المجتمع هي في الحقيقة متضمنة للصفة الأخرى المحذوفة، مؤكداً أن «المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر الوحيد»[٣].

وفي إحدى الندوات العامة حدث نقاش حي آخر بين قطب وبن نبي عبر فيه الأول عن اختلافه مع النتيجة التي وصل إليها بن نبي في نظريته

---

= أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦م، وقد دفنته السلطات المصرية في مكان مجهول. من المعروف أن إعدام سيد قطب أحيا أفكاره ودفع فرقاً من الإسلاميين إلى التركيز على الإسلام السياسي.

(١) بن نبي: **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ٢٤٦.

(٢) السابق.

(٣) سيد قطب: **معالم في الطريق**، الاتحاد الإسلامي، الكويت، ١٩٧٩م، ١٠٦.

عن الحضارة، التي أكدت على أن الدين - أيّ دين - هو المحرك الفعّال للحضارة. وقد أصر قطب على أن الإسلام وحده هو القادر على إنتاج حضارة[١].

قد يبدو الاختلاف بين بن نبي وقطب موضوعياً وعقلانياً؛ إذ كان كل منهما يدافع عما يؤمن به من أفكار. أما اختلاف غازي التوبة مع ما طرحه بن نبي فقد بدا شخصياً بما حمله من تحامل يتعلق ببعض جزئيات تطبيقية أو عملية في مشروع بن نبي الحضاري، متجاوزاً في تناوله الإطار النظري والبعد الفلسفي الذي يمثل الأساس أو الجوهر لفكر بن نبي. ففي كتابه **الفكر الإسلامي المعاصر: دراسات وتقويم**[٢] اعتبر التوبة كلاً من محمد عبده ومالك بن نبي ضمن المدرسة الإصلاحية. وقد ناقش - فيما يخصّ بن نبي - ما جاء في كتابه **فكرة الإفريقية الآسيوية** دون غيره، فهاجم فكرة التحالف الثقافي والحضاري بين شعوب القارتين المطروحة في الكتاب؛ إذ رأى التوبة في ذلك التحالف خلطاً بين الأجناس والأديان والثقافات غير المنسجمة، حاصراً آراءه داخل الإطار الديني دون محاولة فهم باقي الأطر التاريخية والجغرافية السياسية والثقافية وغيرها. ومن الناحية الاقتصادية هاجم التوبة ترحيب بن نبي بتطبيق الاشتراكية في دولة الجزائر المستقلة حديثاً، متوقفاً عند أكثر الموضوعات إثارة له شخصياً وهو موقف بن نبي من السلطة المصرية وعلاقته بها. وقد تحكمت نقمة التوبة - بوصفه عضواً في تنظيم الإخوان المسلمين - على تلك السلطة في تقييمه لبن نبي، إذ انتقد بشدّة وصفه للثورة المصرية بأنها «بداية بناء العالم الإسلامي»، وهي بلا شك عبارة إنشائية، كما شدّد في

(١) انظر: المهدي فضل الله: **سيد قطب في فكره السياسي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩م، ١٠٤ هامش ٢.

(٢) غازي التوبة: **الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة وتقويم**، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧م، ٧٠.

هجومه ليدّعي أن بن نبي لم يكن يعرف - حين قدم إلى مصر- أي قدر من العربية[١]، وأن الفرنسية كانت وسيلته للحديث والكتابة، وأنه أتى إلى مصر من أجل نشر كتابه - الذي سفّه التوبة نظريته - **فكرة الإفريقية الآسيوية**، مشيراً إلى أن اسم بن نبي لم يعرف في البلاد العربية إلّا بفضل الإعلام المصري الذي أبرزه بسبب قربه من السلطة[٢]، متجاهلاً القيمة الفكرية لمجمل أفكار الكاتب.

من الواضح أن اختلاف التوبة مع بن نبي مبني على موقف الأخير من عبد الناصر ونظامه. وإذا تمعنا في الأمر تبين لنا ما وجده بن نبي من الحكومة المصرية من قبول وترحيب؛ إذ منح حق اللجوء السياسي، وأعطي منصباً بمرتب عال[٣]. كما قامت وزارة الإعلام المصرية بنشر كتابه **فكرة الإفريقية الآسيوية** في نصه الفرنسي، ثم في ترجمته العربية بعد ذلك، وهو ما جعله يهدي الترجمة إلى عبد الناصر نفسه، كما أهدى فيما بعد **تأملات في المجتمع العربي** إلى كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة المصرية آنذاك[٤].

---

(١) السابق: ٥٥. تؤكد مصادر أخرى أن بن نبي كان ملماً بالعربية قبل هجرته إلى مصر، ولكنه كان أكثر تمكناً وطلاقة بالفرنسية، ولذلك كتب بها معظم مؤلفاته ولم يمارس الكتابة بالعربية إلا في مرحلة متأخرة من حياته. بن نبي تمكن في أثناء وجوده في مصر من تقوية لغته العربية، فكتب **الصراع الفكري** في البلاد المستعمرة بالعربية عام ١٩٦٩م وفي العام التالي ترجم الجزء الثاني من مذكراته إلى العربية بنفسه.

(٢) السابق.

(٣) ذكر لي شاهين أن بن نبي كان يتقاضى من وزارة الأوقاف مرتباً شهرياً يبلغ سبعين جنيهاً مصرياً.

(٤) كمال الدين حسين (١٩٢١-١٩٩٩م): أحد الضباط الأحرار الذين قاموا مع عبد الناصر بالثورة على الملكية عام ١٩٥٢م وعين عضواً بمجلس قيادة الثورة، وكان يعد من جناح الإخوان المسلمين في المجلس. تقلد عدة مناصب وزارية =

ومن الجدير بالملاحظة أن بن نبي عندما أصدر كتابه **وجهة العالم الإسلامي** في أصله الفرنسي عام **١٩٤٩**م، ضمنه الإشادة بمؤسس حركة الإخوان المسلمين حسن البنا الذي «لم تكن عقيدته إلا القرآن نفسه، ولكنه القرآن بنبضه وحياته» معتبراً أن الفكرة الأساسية التي تكونت حولها هذه الجماعة إنما هي العودة إلى النمط الإسلامي الأول الذي بني على فكرة المؤاخاة.

ويبدو أن بن نبي كان حريصاً على إبراز الأسس التي قامت عليها حركة الإخوان المسلمين ومعجباً بشخصية حسن البنا التي جعلته قائداً مؤثراً، ولذلك فقد ضمّن النسخة الفرنسية آراءً إيجابيةً عن الحركة ورائدها ولكن ذلك الكلام لم يترجم كاملاً في النسخة العربية بسبب الأوضاع السياسية التي سادت مصر آنذاك[١]. ولعل بن نبي قد احتفظ برأيه في البنا، لكن نظرته إلى الحركة نفسها قد تغيَّرت حينما أصبحت ذات طابع سياسي وتحت توجيه قادة آخرين. ولعلّ ذلك هو الذي أدى إلى أن يقاطع قادة الحركة أفكار بن نبي، وينصحوا شبابهم بعدم قراءة كتبه.

لقد هاجر بن نبي إلى مصر؛ بسبب عدة عوامل متشابكة لعل أولها المضايقات التي وجدها في فرنسا التي اضطرته إلى تهريب كتابه **فكرة الإفريقية الآسيوية** إلى مصر بواسطة السفارة الهندية[٢]، ثمّ اندلاع حرب التحرير الجزائرية ومساندة مصر لها ودعمها لممثليها ورموزها، علاوة على أن مصر كانت البيئة الملائمة لنشر أفكاره وترجمة مؤلفاته عامة

---

= منها وزير التربية والتعليم، قدّم استقالته من مجلس الثورة عام ١٩٦٤م بعد خلاف مع أعضائه. وضع تحت الإقامة الجبرية وعاد إلى الحياة السياسية في عهد السادات فانتخب في مجلس الشعب.ثم انسحب بعدها من الحياة السياسية.

(١) انظر: عبد الله بن حمد العويس: **مالك بن نبي: حياته وفكره**، الرياض، ١٩٩٤م، ٦١٨ (مقابلة مع حمودة بن الساعي).

(٢) السابق: ٦٦١.

و**فكرة الإفريقية الآسيوية** خاصة، وهو الكتاب الذي بني على فكرة مؤتمر باندونج الذي كان لعبد الناصر فيه دور مؤثر. هذه العوامل هي التي دفعت بن نبي لتقديم نفسه بصفته وطنياً جزائرياً ومفكراً مؤيداً للثورة ولأفكار باندونج.

وقد تجاوب بن نبي، باعتباره مثقفاً ملتزماً، مع أفكار عبد الناصر التي آمنت بها نخب كثيرة. ولهذا السبب فقد تجنب التعبير عن تعاطفه مع الإخوان المسلمين خلال محنتهم مع النظام في أوائل الخمسينيات، بل إن ما كتبه عن الحركة في **وجهة العالم الإسلامي** لم يترجم بحذافيره في النسخة العربية كما ذكر سابقاً، فقد قدم بن نبي إلى القاهرة عام **١٩٥٦**م عندما كان الجو السياسي والثقافي والإعلامي مشحوناً ضد الحركة فكراً وأسلوباً. والحقيقة إن أي نوع من التعاطف مع تلك الجماعة داخل مصر لم يكن ليعتبر موقفاً حكيماً أو مأموناً؛ إذ ربما يطلب من صاحبه مغادرة البلاد كما حدث مع الحاج أمين الحسيني مفتي القدس السابق، الذي واجه مثل هذا الموقف بسبب علاقة ربطته ببعض الإخوان؛ إذ طلب منه عام **١٩٥٩**م مغادرة البلاد عندما لمسوا منه تعاطفاً من نوع ما[1]. وفي هذه الظروف كان بن نبي على علاقة طيبة بشخصيتين إسلاميتين قد تكونان مؤثرتين في تحفظ بن نبي على حركة الإخوان في تلك الظروف؛ الأولى هي الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي كان عضواً في جماعة الإخوان ثمّ طرد منها بعد قبوله منصباً وزارياً في حكومة عبد الناصر. ولعل القاسم المشترك الذي جمع بين بن نبي والباقوري كان تلك العاطفة الإسلامية العميقة المتزامنة مع ميل إلى عبد الناصر وتوجهه القومي. أما الشخصية الثانية فقد كان محمود شاكر، الذي لم يكن يقبل حركة الإخوان، بل كان

(1) Majid Khadduri, **Arab Contemporaries: The Role of Personalities in Politics,** John Hopkins University Press, Baltimore and London, 1973, P. 83.

ينتقدهم ويهاجمهم ويفند أفكارهم وخاصة في أثناء لقاءاته مع الباقوري وبن نبي[١].

أقام بن نبي في مصر ليمارس نشاطه الفكري ويتواصل مع نخبة من الدارسين في الجامعات المصرية خلال الستينيات. حيث كان يعقد ندوة أسبوعية في منزله يرتادها أولئك الطلاب وغيرهم من المثقفين. وقد استفاد منها عدد من أبناء ذلك الجيل الذين اتصلوا ببن نبي واطلعوا على أفكاره وكوّنوا رؤاهم في حلقته الثقافية التي كانت تضع كل القضايا المطروحة في إطار مشكلات الحضارة التي نذر بن نبي تأملاته الفكرية والفلسفية لتشخيصها وتتبع جذورها. وربما بسبب ذلك الإقبال كانت تلك اللقاءات تحت الرقابة الرسمية[٢]، فبقي تأثيره في تلك البيئة محدوداً.

## العودة إلى الجزائر

عندما انتصرت الثورة الجزائرية وتحقق حلم بن نبي في استقلال بلده لم يتحمس للعودة، بل بقي في القاهرة وتزوج في العام نفسه - **١٩٦٢**م - من سيدة جزائرية انتقلت إليه من تونس، وعاشا معاً في القاهرة لأكثر من عام[٣]. وعندما عاد إلى الجزائر عام **١٩٦٣**م استأنف الكتابة وإلقاء المحاضرات بالفرنسية غالباً، فنشر مقالات عديدة في صحف مثل **الثورة الإفريقية** و**المجاهد** وغيرهما. وقام بعد ذلك بترجمتها إلى العربية بنفسه، ونشرها بعد وفاته عمر مسقاوي تحت عنوان **بين الرشاد والتيه**. وفي هذه

(١) د. شاهين، المقابلة.

(٢) السابق.

(٣) لقد بقي سبب عدم عودة بن نبي إلى الجزائر بعد استقلالها غير معروف. ذكر البعثي أن بن نبي كان على خلاف مع أحمد بن بلة ولذلك لم يعد إلى الجزائر في عهده. انظر: البعثي: ١٩١.

المرحلة اهتم بن نبي بمناقشة مختلف القضايا التي تتعلق بما أسماه بالفراغ الإيديولوجي، أو المفاهيمي - كما يحلو له أن يسميه - الذي وجدت الجزائر فيه نفسها وهي تواجه ذاتها وتراثها ومستقبلها بعد الاستقلال. وفي هذا الإطار ألقى بن نبي ثلاث محاضرات قيّمة حول الثقافة والإيديولوجية والحضارة، جمعها في كتاب بعنوان:

**Discours Sur la Culture, L'ideology et la Civilisation**

ترجم إلى العربية بعنوان **آفاق جزائرية**.

وفي عام **١٩٦٥**م عُيّن بن نبي مديراً للتعليم العالي التابع لوزارة التعليم القومي، وقد جعله هذا المنصب محط اتصال كبار المسؤولين لاستشارته في قضايا التعليم الجامعي[١]. ولكن لم تمضِ سنتان حتى أُعفي من منصبه لأسباب غير معروفة. ولم يحل ذلك دون استمراره في الكتابة والنشر، بل إنه قد فتح منزله مرة أخرى لعقد لقاءات فكرية تناقش فيها القضايا الكبرى المتعلقة بالجزائر وبالعرب والمسلمين وبالحضارة الإنسانية إجمالاً[٢]. وكانت هذه الندوة الأسبوعية قبلة يرتادها طلاب الجامعات والشباب المتطلع إلى لون جديد من المنهجية والتحليل، الهادف إلى محو (القابلية للاستعمار)، وزرع (الفعالية) لمواجهة المشكلات الفردية والجماعية. ولذلك لم يكن غريباً أن تخضع هذه اللقاءات للمراقبة، مما أدى إلى منع مالك بن نبي من السفر، حتى اضطر أن يكتب عام **١٩٧١**م طلباً للسلطات للسماح له ولزوجته وبناته الثلاث بالسفر لأداء فريضة الحج[٣]. وقد

---

(١) محادثة هاتفية مع زوجته في أثناء زيارتها لابنتها رحمة بكليفورنيا في آب/ أغسطس **١٩٨٥**م.

(٢) رشيد بن عيسى، المقابلة. عنوان المنزل الذي كانت تعقد فيه الندوة هو **٥** شارع فرنكلين روزفلت. انظر: البعثي، **٢٢٧**.

(٣) زوجة بن نبي، محادثة هاتفية.

أمضى بن نبي وأسرته في تلك الرحلة نحو سبعة شهور تنقل خلالها بين مصر وسورية ولبنان وليبيا وتونس، يعقد الاتصالات بأصدقائه وتلاميذه، ويرتب حقوق طبع مؤلفاته، وكأنه شعر بأن تلك هي رحلته الأخيرة، وأن هذه اللقاءات هي الفرصة الوحيدة الباقية ليلقي ببذور أفكاره فيمن يجد من عقول واعية. وقد كانت رحلته إلى دمشق مثمرة شخصياً وثقافياً (انظر الملحق)، كما سجّل - في أثناء وجوده في لبنان - وصية رسمية في محكمة طرابلس (تحت رقم ٧٦/ ٢٧٥ بتاريخ ١٦/ ٤/ ١٣٩١هـ الموافق ١٠/ ٧/ ١٩٧١م) منح فيها المحامي عمر مسقاوي حق الإشراف على طبع مؤلفاته والحفاظ على حقوقه الفكرية بعد وفاته.

وبعد عودته من هذه الرحلة، وفي أثناء الشهور الأخيرة من عمره - على الخصوص - شعر بن نبي بالغبن والجحود والإحباط إذ عملت السلطة الجزائرية على عزله وتجاهله ومضايقته. وهناك من يرجع سبب ذلك إلى حديث مالك بن نبي بين يدي الملك فيصل في أثناء استقباله لممثلين عن حجاج عام (١٣٩١هـ- ١٩٧١م)، والذي أشار فيه إلى غياب الحريات في بلده الجزائر. ولقد بلغت تلك المضايقات درجة وصفها أحد تلاميذه بقوله:

«ولعلّ الشهور الأخيرة التي عشناها معه هي أخصب فترة لنا؛ حيث عشنا معه بعض الليالي لحمايته، لأن أعداء الإسلام في البلاد هددوه وحاصروه وضغطوا عليه، بل ووصلوا إلى أن بعثوا له اثنين أو ثلاثة فضربوه قرب منزله، وتركوه مرميّاً في الطريق، دامي الوجه مصروعاً، لولا رحمة الله به أن جاء بعض الناس وذهبوا به إلى المستشفى. وبعد هذا الاعتداء نظّمت مداومة في بيته من أجل حمايته، فكان الطلبة يتناوبون في بيته كل ليلة يحرسونه...»[1].

(١) محمد مصطفى: "رجوع التذكير أو تاريخ مرحلة دعوية حاسمة"، مجلة **التذكير**، جامعة الجزائر، العدد ٦، رجب ١٤١٠هـ - شباط/ فبراير ١٩٩٠م، ٤٠.

وخلال تلك الأيام سلّطت عليه جارة سليطة اللسان دخلت معه في مشادَّة وضربته على وجهه فكسرت بعض أسنانه، وقد طلب من زوجته أن تحتفظ بتلك الأسنان في قطعة قطن لبناته، ذكرى للمعاملة المهينة التي ابتلي بها في آخر عمره[١]. وقد أصيب بن نبي بسرطان في المخ وأجريت له عملية بفرنسا وعندما عاد إلى بلاده ما لبث المرض أن عاوده فتوفي في منزله في اليوم الأخير من شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام **١٩٧٣**م، ودفنه تلاميذه وأصدقاؤه، ورثاه كثيرون في دمشق ولبنان ومصر وبلدان المغرب العربي وفرنسا وفي غيرها من البلاد الإسلامية، كما أبّن رسمياً وشعبياً في الجزائر وليبيا.

وإذا حاولنا أن نقيّم المدة الأخيرة التي قضاها بن نبي في الجزائر فإنه بإمكاننا ملاحظة تحوّله من رجل نخبة محدودة إلى رجل جماهير بعد أن اتَّسعت حلقته الثقافية التي كان يعقدها في بيته، وتعددت المحاضرات التي كان يلقيها في أماكن مختلفة، وتحضرها فئات ومستويات فكرية واجتماعية متنوعة، كما أن عمله مديراً للتعليم العالي قد ساعده على الاتصال بالوسط الطلابي المتحمس، داعياً إلى أفكاره شارحاً رؤاه، رابطاً كل ذلك بحياة الناس اليومية وبسلوكهم الفردي. يشير إلى ذلك أحد تلاميذه بقوله: «أتذكر ليلة ونحن في بيته، وجدنا ندرس الكهرباء وبالأخص المحولات الطاقوية فقال لنا: إن وظيفة المسلم تجاه مجتمعه هي مثل وظيفة المحوّل [حيث] يمكن تحويل طاقة كامنة في القرآن وبعثها في النفوس والمجتمع»[٢].

---

(١) حديث شخصي مع زوجته، تبسة، ملتقى الفكر الإسلامي، أغسطس/ سبتمبر ١٩٨٩م. وقد علم بهذه الحادثة صديقه علي أوجيت في قلب الصحراء فذكرها في المقابلة التي أجريت معه.

(٢) محمد مصطفى: السابق.

لقد سعي بن نبي إلى الوصول إلى عقول المثقفين ومتوسطي الثقافة وإلى قلوبهم بأفكاره ومؤلفاته ومحاضراته، كما قابل بعض السياسيين والحكام العرب الذين اطلعوا على كتبه وسعوا إلى الاتصال به. فقد التقى مثلاً بالعقيد معمّر القذافي وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة في أثناء زيارته الأخيرة لليبيا، ولعله شرح لهم بعض الخطوط العامة من منهجه الفكري وأسلوبه التحليلي لقضايا العالم الإسلامي ومشكلاته الحضارية. ولقد قدّرت الحكومة الليبية بن نبي مادياً ومعنوياً في أثناء مرضه وقبله، كما رعت أسرته بعد وفاته لسنين طويلة، ولعلها ما زالت تفعل.

obeikandl.com